

صعرد النظام العثماني ، اي منذ فتح السلطان سليم الاول لسورية (١٥١٦م) ، لم يقم سليم الاول باي اجراء من شأنه الحد من السيطرة البدوية في الصحراء السورية (وكان يقدر عددهم بعشر السكان) اذ كان هؤلاء البدو يغتصرون باستمرار على المدن والقرى ، ينهبون ويسلبون محاصيلها ويحولون اراضيها الزراعية الى مراع لقطعانهم . فاشادت كل قبيلة قوية لنفسها في مناطق الحضر شبه اقطاع ، حيث تتولى القبيلة البدوية الدفاع عن الفلاح ضد القبائل الاخرى المغيرة مقابل فريضة معلومة يدفعها لها . وهكذا ابقى سليم الاول على نظام السيطرة البدوية الذي كان قائما منذ عهد المماليك . فترك لهم نظمهم التقليدية في السيطرة . وكان يأخذ بعين الاعتبار اهمية اشغال بكوات السناجق بحظر البدو عن الثورة او التمرد والانفصال (٦) . وطوال العهد العثماني لم تقم في شرقي الاردن سيطرة مركزية ثابتة للدولة او هيمنة مطلقة تحد من الفوضى التي تثيرها الهجمات والغزوات البدوية والمنافسات بين القبائل البدوية على السيطرة على المنطقة . وهكذا كان الغزو البدوي للمناطق الزراعية يبدو كعاقبة حتمية لسيطرة الطبيعة على القبائل الرعوية المتدنية في درجة تطورها ، والتي تعمم ، عن طريق غزوها التدميري ، نفوذ الطبيعة المطلق ، لا عليها فقط وهي القبائل الرعوية ، التي تعجز كثيرا عن تجديد انتاجها البسيط كل عام فتضطر الى الترحال والغزو ، وانما على المناطق الزراعية والحضرية التي قطعت القوى المنتجة فيها اشواطاً من التطور الانتاجي . وكان الفائض السكاني المتزايد الذي تدفعه الهجرات من الجزيرة الغربية الى شرقي الاردن - بوابة سورية الجنوبية - يتدفق اما على شكل قبائل مهزومة على يد قبائل اكثر فتوة وقوة تنجح الاخيرة في طردها من ديارها ، او على شكل توسع وامتداد للقبائل المندفعة نحو توسيع نطاق نفوذها ومراعيتها (٧) .

لكن ينبغي ان نأخذ في الاعتبار سببا جوهريا آخر للتنازع والصراع

(٦) راجع د . ليلي صباغ : اقتصاد سورية في العهد العثماني .

(٧) راجع في « تاريخ شرقي الاردن وقيادتها » ، الجزء الثاني ، فردريك بيك ، وصفا لكيفية دخول القبائل البدوية الى شرقي الاردن : دخول بني خالد في القرن التاسع عشر الى شرق الاردن بعد نزاع مع بني نعيم ، قدوم بني صخر من شمال الجزيرة وصراعهم مع السردية (التي برزت كسيادة مطلقة من دمشق الى البلقاء بعد منتصف القرن السابع عشر) وتنقل بني صخر بين اطراف المنطقة (جنوب سورية ، شرقي الاردن ، بحر السبع وغزة) ، خروج عنزة من الجزيرة العربية وسيادتها في مطلع القرن الثامن عشر قسي الصحراء السورية ثم طردها . صراع الحويطات وبني صخر في النصف الثاني للقرن التاسع عشر . الخ .